« حقاً ما أجمل ذلك القماش ! إنى راض عنه الرضى كله » ثم ابتسم وحدق فى المناسج الفارغة . ولكن هيهات لنفسه الضعيفة أن تشكر وجود شىء أقره رجلان من كبار رجاله ! ! وانطلق رجال الحاشية يحدقون كذلك ويصيحون : بديع ! مدهش ! فخم ! عجيب ! رائع ! تلك كانت الصفات التى أخذت ترن فى أنحاء المكان الواسع . ثم عطف الملك على الحائكين وأجزل لهما العطاء ورفعهما إلى الدرجات العالية ، وقرر الملك أن يلبس تلك الحلة الرائعة ويسير فى موكب فخم فى أنحاء المدينة يعرضها على الأنظار . .

جاء يوم الاحتفال — ذلك اليوم المشهود — فخرج الناس من منازلهم ، وساروا زرافات فى الطرق ، حتى فاضت بهم السبل ، وكأن الأرض صفحة كتاب ، سطورها الشيوخ والشباب . أما الملك فقد جرده اللصان من ملابسه إلا قميصه وسرواله ، ثم أوقفاه أمام المرآة ، وأخذا يروحان ويجيئان ، ويرفعان أيديهما ويضعانها ، ويديران الملك أمام المرآة ليرى الحلة الجديدة ، وأفراد الحاشية وقوف بين متعجب ومسرور ، ثم صاح اللصان أن قد تم كل شىء فتقدم الخدم الى رفع الذيل الموهوم لتلك الحلة الخيالية ، وسار الملك فى طليعة السائرين ، والوزراء والأعيان حوله ووراءه ، والنساء معلات من المنافذ والشرفات ، والناس منهومون بالنظرات . وما وقعت عيونهم عليه حتى علا الصياح يشق جوف الفضاء : « ما أجمل الثوب ، وما أبدع الذيل » ! ! . . .

وهكذا ظل كل انسان يخدع نفسه ويكذب عينيه ، ظناً منه أنه وحده قد عجز عن رؤية الثوب ، وأن الباقين يرونه كما يرى بعضهم بعضاً . واستمر الحال كذلك برهة والناس جميعاً خادعون ومخدوعون . ثم صاح طفل ساذج : « ليس على الملك ثوب جديد ! الملك عريان ! » فبهت الجميع . . . ثم صاح شيخ كهل :

« اسمعوا صوت الحق ، اسمعوا صوت الطبيعة التى لا تعرف الملق والنفاق » . فاغتم الملك غماً شديداً إذ علم أن ما قاله الطفل حق صراح ، يبصره هو ويشعر به ، ثم عاد أدراجه بين سخر الساخرين ، واستهزاء الضاحكين .

م . ك

سيوة

تقع واحة سيوة فى صحراء مصر الغربية على الحدود مابين مصر وطرابلس على مسافة مائتى ميل جنوبى السلوم وأربعمائة ميل غربى وادى النيل .

ويمكن القول أنها الواحة الشمالية من سلسلة واحات تتبع إحداها الأخرى من الجنوب إلى الشمال فى صحراء « ليبيا » وكان الأقدمون يسمون هذه الواحات « بالأراضى المقدسة » لأنهم كانوا يعتقدون أن الآلهة منحت هذه البقاع ماء وسط تلك الصحراوات القاحلة ، ولأن هذه الواحات قد حمتها الطبيعة بأن أحاطت كل واحة منها بسلسلة من جبال كلسية تمنع عنها الرمال الدقيقة التى تحملها معها الرياح ، إذ لولا هذه الجبال لغطتها كثبان الرمال وجعلتها فى عالم النسيان ، كذلك عيون الماء المتفجرة فى هذه الواحات سببت الحياة والرخاء وسط ذلك المحيط القاحل غرب وادى النيل .

تتكون سيوة من عدة واحات صغيرة متجاورة تقع فى منخفض من الأرض يبلغ طوله حوالى ثلاثين ميلا وعرضه ستة أميال تقريبا ، وينخفض عن سطح البحر حوالى عشرين متراً تكنفها صحراء جرداء محرقة لا تسقط فيها الأمطار

ولقد زارها الاسكندر الأكبر حينما غزا مصر وتبرك بزيارة معبد « جوبيتر آمون » إرضاء للكهنة المصريين ورغبة منه فى إظهار احترامه لدينهم

يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة ، وهم سلالة أقوام قديمة من البرابرة ، ولا يشبهون أعراب الصحراء فى شىء . ولهم لغة خاصة بلهجة ولكنة غريبتين ، ولعلها لغة أجدادهم البرابرة القدماء ، والغريب فى أمرهم أنهم يتكلمون بتلك اللغة ، ولكنهم لا يتكاتبون بها ، بل إنهم يتكاتبون باللغة العربية ، ولا شك فى أن بقاء هذه اللغة البربرية راجع إلى بعد الواحة عن العمران ، وصعوبة المواصلات بينها وبين الأجزاء الأخرى من القطر فقل اختلاط السكان بالمصريين والأعراب ، بل إن أهالى سيوة لهم عادات خاصة ، وطباع تخالف فى جوهرها طباع العرب و سكان وادى النيل

ليس لهذه الواحة تاريخ معروف ، بل إن ماضيها مظلم ، وليس من

سبيل لالقاء أشعة من النور لمعرفته إلا إذا قامت بعثات علمية بالحفر فى جبالها وآثارها والتنقيب فى معابدها وخرائبها حتى يمكن أن يرفع ذلك الستار الكثيف عن تلك المدنية البائدة الغريبة

والطريق الأكثر استعمالا للوصول إلى سيوة هو من مرسى مطروح والسلوم، ويمكن للسيارات الصغيرة الخفيفة أن تقطع مابين مرسى ومطروح وسيوة فى ثمانى ساعات. أما السيارات الثقيلة المعدة للتحميل فتقطع المسافة فى يومين، وتقطعها الجمال فى سبعة أيام، ويقطع كثير من أعراب الصحراء المسافة من شاطىء البحر الأبيض إلى سيوة مشيا على الأقدام وهى مسافة لايستهان بها إذا أضيف اليها ندرة الماء فى الطريق.

وكل ما يعيش عليه الأعرابى فى الطريق، قليل من التمر ولبن الناقة وقطرات من الماء، وبهذه المناسبة أقول إن السيارات لم تبدأ بالسير بين مرسى مطروح وسيوة إلا منذ سنة ١٩٢٦ أما قبل ذلك فالمواصلات بين البلدين كانت بالجمال، غيرأنه حدث أن زار الخديو السابق عباس باشا سيوة سنة ١٩٠٥ مع بعض الألمان الذين كانوا ينقبون عن الآثار فى مدينة «سانت منياس» القديمة التى تقع فى الجنوب الغربى من الاسكندرية وكان بصحبته الهر إيوارت فولز. Ewart Falls وقد قطع المسافة لسيوة على عربة مكشوفة (فيتون) تجرها جياد تستبدل بغيرها كلما أصابها الكلال والتعب، وهذه هى المرة الأولى التى سارت فيها عربات ركوب فى الصحراء فى تاريخ سيوة الحديث، وتألفت حملة الخديو السابق فى هذه الزيارة من أربعة علماء من الألمان وعشرين جنديا واثنين وستين حصانا و٢٨٨ جملا لحمل الأمتعة. هذا عدا خدم الخديو الخصوصيين.

وتهتم مصلحة الحدود الآن باصلاح الطريق ما بين مرسى مطروح وسيوة، فهى تزيل الصخور من الطريق وتضع مخلوطاً من خرسانة الأسمنت فى المواضع التى يغطيها مطر الشتاء، ثم إنها أصلحت بعض المستودعات القديمة الرومانية التى تجمع فيها الأمطار وسقفتها بأسقف من خرسانة الأسمنت وعملت فيها فتحات حتى يتمكن المارة من أن يحصلوا على الماء بالقاء دلو مربوط فى حبل كى يأخذوا مايشاءون من الماء، وحتى لا يضيع أى قدر من ماء الأمطار، وازدادت تلك العناية عقب زيارة حضرة صاحب الجلالة الملك الأخيرة سنة ١٩٢٨ إذ أن مصلحة الحدود تعمل على ايجاد أكبر عدد من مستودعات ماء المطر فى طريق الصحراء بين مرسى مطروح وسيوة لدرجة أن العربى الذى يقطع المسافة سائراً على قدميه يمكنه أن يجد فى طريقه كل يوم مستودعاً فيأخذ منه ما يحتاجه من ماء يكفيه طول اليوم، ومن أكبر هذه المستودعات أو الآبار هو بئر جلالة الملك فؤاد الأول عند البويب وهى منتصف المسافة تقريباً بين مرسى مطروح وسيوة، وتوجد آبار أخرى فى الطريق أذكر منها بئر الكنائس والحجفا وغيرها.

يقطع المسافر من مرسى مطروح الصحراء الغربية فى رقعة من الأرض متشابهة الأشكال والمنظر لا تغيير فيها، فهى رمال صفراء تغطيها قطع صغيرة من الأحجار المتناثرة هنا وهناك، ويمر فى طريقه ببعض التلول الصخرية القاتمة اللون، ولا يرى إلا سراب الصحراء على امتداد البصر، ولقد رسمت السيارات دروباً واضحة فى الصحراء بحيث أصبح السائقون على إلمام بها بحيث لا يضلون الطريق كأنما هم يسيرون فى شوارع البلاد الآهلة بالسكان، وقبل الوصول الى سيوة بما يقرب من عشرين كيلو متراً تبدأ العربات بالانحدار فى طرق منعرجة وسط الصخور التى تحيط الواحة، ولا تزال هذه الطرق تنحدر فى ميلها تدريجياً حتى تتمكن السيارات فى نهايتها من الوصول الى الواحة نفسها، وذلك الانحدار طبيعى لأن هضبة الصحراء ترتفع عن سطح البحر، بينما الواحة نفسها منخفضة عن سطح البحر حوالى عشرين متراً، وما أن ينتهى ذلك الانحدار حتى ترى أشجار النخيل وقد مالت كل منها على الأخرى وكأنما هى عرائس وضعت على رؤوسها أكاليل من أوراق الربيع الخضراء، وتراها وهى فى وسط الواحة الهادئة الساكنة كأنما تسر كل منها للأخرى أسرار الكون وأسرار وجود الحياة وسط تلك الصخور الصامتة الخرساء. ولا شك فى أن القادم على سيوة حينما يقع بصره على أشجار الزيتون والنخيل يشعر بالفرق الشاسع بين تلك الصحراء المملة برمالها ودروبها، وبين تلك الواحة باخضرارها ووجود الحياة البالغة فيها، ثم يستمر السير وسط حقول الواحة وقد أحيط كل حقل بسياج من جريد النخل الذى لفحته حرارة الشمس فتحول لونه من أخضر زاه الى أصفر ذهبى، وبعد مسير بضع دقائق تصل وسط البلدة عند مركز سيوة.

« يتبع »

كاتب